إيلان بابيه وخرافة الأساطير الإسرائيلية العشرة

وسط عالم مشحون بالكذب والدعاية الإسرائيلية المركزة التى جعلت معظم دول العالم يؤيد عدوان إسرائيل على غزة بدعوى حماية نفسها، ظهرت عدة أصوات يهودية تفضح حقيقة العدوان المستمر منذ احتلت إسرائيل أرض فلسطين بوعد انجليزى وبمباركة أوروبية ثم أمريكية، من بين هذه الأصوات الكاتب الإسرائيلى إيلان بابيه المؤرخ الأشجع والأكثر مبدئية والأكثر إلحاحًا فى البحث ونشر المعلومات التى تدحض كل الادعاءات الإسرائيلية. هو ليس الوحيد لكنه موضوعنا اليوم وكتابة عشرة أساطير أو تخاريف إسرائيلية الذى نشر عام ٢٠١٧. وقد اخترت هذا الكتاب المنشور بالإنجليزية لأنه يقدم بالدليل القاطع أدلة دامغة على ادعاءات تعيش عليها إسرائيل على أنها حقائق، وقبل أن أعرض لهذا الكتاب القيم أريد أن نتعرف أولاً على إيلان بابيه فمن هو؟

هو مؤرخ إسرائيلى بارز وناشط اشتراكى ينتمى إلى تيار المؤرخين الجدد الذين قاموا بإعادة كتابة التاريخ الإسرائيلى وتاريخ الصهيونية وطرد وهروب ٧٠٠،٠٠٠ فلسطينى فى عام ١٩٤٨. ويعتقد بان عملية التطهير العرقى لفلسطين، تم التخطيط لها بصورة مسبقة وواعية، ويُركز بالأساس على ما يعرف بخطة «دالت» التى انتهجتها الوحدات العسكرية الإسرائيلية عام ١٩٤٧. وهو يلقى اللوم على إسرائيل فى انعدام السلام بالشرق الأوسط، ويرى بان الصهيونية أكثر خطورة من التشدد الإسلامي. كما أنه من الدعاة إلى مقاطعة المؤسسات التعليمية الإسرائيلية. يدعم بابيه حل الدولة الواحدة وقيام دولة ثنائية القومية للفلسطينيين والإسرائيليين.

يعمل إيلان بابيه أستاذًا بكلية العلوم الاجتماعية والدراسات الدولية بجامعة إكستر بالمملكة المتحدة، ومديرًا للمركز الأوروبى للدراسات الفلسطينية بالجامعة، والمدير المشارك لمركز إكستر للدراسات العرقية والسياسية. من مواليد حيفا عام ١٩٥٤، لأبويين يهوديين من أصول ألمانية هربا من الملاحقة النازية لليهود خلال ثلاثينات القرن العشرين. تخرج من الجامعة العبرية فى القدس سنة ١٩٧٨ وحصل على الدكتوراه من جامعة أكسفورد سنة ١٩٨٤. وكان موضوع أطروحته للدكتوراه «بريطانيا والصراع العربى الإسرائيلي» والتى نشرت فى كتابه الأول. عمل محاضرًا فى العلوم السياسية بجامعة حيفا (١٩٨٤–٢٠٠٧) وكان رئيسًا لمعهد إميل توما للدراسات الفلسطينية والإسرائيلية فى حيفا ٢٠٠٠–٢٠٠٨ وكان أيضًا عضوًا بارزًا فى الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة، ورشح على قائمة الأحزاب فى انتخابات الكنيست ١٩٩٦ و ١٩٩٩.

من بين مؤلفاته كتب: التطهير العرقى لفلسطين (٢٠٠٦)، والشرق الأوسط الحديث (٢٠٠٥)، وتاريخ لفلسطين الحديثة أرض واحدة وشعبان (٢٠٠٣)، وعشر خرافات عن إسرائيل، صنع الصراع العربى – الإسرائيلى ١٩٤٧–١٩٥١. (٢٠١٧).

تعرض إيلان بابيه للكثير من النقد فى إسرائيل بسبب تأييده للحقوق الفلسطينية فى عودة اللاجئين وفى مقاومة الاحتلال. فى سنة ٢٠٠٥ دعم بابيه مقاطعة إسرائيل بما فى ذلك المقاطعة الأكاديمية، ويفسر بابيه دعمه للمقاطعة بأنه يجب الضغط على إسرائيل من الخارج كأحسن وسيلة لإنهاء أفظع احتلال عرفه التاريخ الحديث، وقبل مغادرته إسرائيل عام ٢٠٠٨ تمت إدانته من قبل الكنيست الإسرائيلي؛ وقد دعا وزير التعليم إلى إقالته؛ ظهرت صورته فى إحدى الصحف بانه مستهدف؛ وقد تلقى عدة تهديدات بالقتل واتهم بأنه يعمل مرتزقًا للعرب وطالب رئيس جامعة حيفا باستقالته. وغادر بابية إسرائيل للتوظيف فى جامعة إكستر.

فى كتابه عشر خرافات عن إسرائيل: Ten myths about Israel ، يقدم فيه إيلان بابيه الأفكار الأكثر جدلية فيما يتعلق بدولة اسرائيل وهويتها، ويفند كل الخرافات التى يعتمد عليها الصهاينة فى إضفاء الشرعية على وجودهم كثوابت غير قابلة للتغيير مثبتاً بأنها محض افتراءات وخرافات. وبحسب الكاتب، تستند إسرائيل إلى هذه الخرافات فى تكريس سياساتها الاستيطانية القائمة على طرد الشعب الفلسطيني، ومواصلة ممارساتها العنصرية بحقهم.

يقول بابيه فى مقدمة كتابه أن «التاريخ مليء بالصراعات، وإن تفهم حقيقة الصراع دون تحيز للماضي، يوفر السلام. أما الطريقة الخاطئة للفهم، أو تفصيل الحدث على المقاس من خلال التشويه، فإن ذلك سيؤدى إلى إدامة الصراع طويلا. ويرى أن دحض الأساطير التى تدعم الظلم تهيء المناخ لمن يريد أن يعيش على هذه الأرض بسلام.

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة اجزاء: خرافات الماضى وخرافات الحاضر والتطلع للمستقبل، وذلك فى عشرة فصول وخاتمة عن إسرائيل الاستعمارية فى القرن الواحد والعشرين.

الخرافات

● أن فلسطين أرض خالية:

تدعى أولى الخرافات أن فلسطين كانت أرضاً خالية قاحلة شبه صحراوية عشية وصول الصهاينة أواخر القرن التاسع عشر وتمت زراعتها وتأهليها من قبل الصهاينة.

فيؤكد المؤلف بان فلسطين كان بلدا معترفا به منذ العصر الرومانى، وقد كان تاريخ فلسطين مرتبطا ارتباطا وثيقًا بالعالم العربى والإسلامى منذ القرن السابع. وبالعودة إلى السجلات العثمانية للتعداد السكانى لفلسطين عام ١٨٧٨، فإن غالبية السكان كانوا من المسلمين وقد شكل اليهود حينها نسبة ٣٪ فقط من السكان، بينما شكل المسيحيون ١٠ بالمائة من السكان. فكانت فلسطين بلدًا ريفيًا عامراً على وشك الدخول إلى القرن العشرين، وكان يتمتع بازدهار قبل قدوم الصهاينة، وكان يشهد الكثير من التحديث كمناطق حضرية، وسكان حضريين. وان نفى إسرائيل لوجود الفلسطينى فى ارض فلسطين هو تزوير للتاريخ. لقد كان الفضاء الجيوسياسى الذى يسمى اليوم إسرائيل أو فلسطين بمثابة مساحة دولة معترف بها منذ العصر الرومانى. مكانتها وأحوالها فى الماضى البعيد هو موضوع للنقاش الساخن بين أولئك الذين يعتقدون ذلك ومصادر مثل الكتاب المقدس ليس لها قيمة تاريخية.

● اليهود كانوا شعبا بلا أرض:

يقول المؤلف بأن الخرافة الثانية: هى أن اليهود الذين وصلوا فلسطين عام ١٨٨٢ ينحدرون من اليهود الذين طردهم الرومان منها عام ٧٠ للميلاد. ثم يدحضها لأن الاحتمال الأكبر، كما يقول، هو أن يهود فلسطين الرومانيين ما غادروا ارضهم وبقوا هناك متحولين إلى المسيحية أولاً ثم

إلى الإسلام. ويؤكد «إن ما قبل عهد الصهيونية كانت الصلة بين المجتمعات اليهودية فى العالم وفلسطين علاقة روحية ودينية وليست سياسية. وأن ترتيب عودة اليهود إلى فلسطين كان مشروعا مسيحيا بروتستانتيا فى الأصل، ثم أكملته الحركة الصهيونية.

● الصهيونية هى اليهودية:

يتناول المؤلف الإسرائيلى فى الفصل الثالث الخرافة التى تساوى الصهيونية باليهودية حيث أصبحت معاداة الصهيونية هى معاداة للسامية، فيحاول دحض هذه المعادلة من خلال إجراء تقييم تاريخى للمواقف اليهودية إزاء الصهيونية، وتحليل تلاعب الصهيونية بالديانة اليهودية لأسباب استعمارية بالأساس وإستراتيجية لاحقا، وكذلك خداعها لليهود أنفسهم بالأساطير التضليلية التى اخترعتها. ويضيف أن ديفيد بن غوريون أول رئيس وزراء إسرائيلي- لوّح بالتوراة فى وجوه أعضاء لجنة بيل الملكية البريطانية (التى كانت تحاول تقسيم فلسطين بين الانتداب واليهود والعرب) صائحا: أن هذه التوراة تؤسس لحق اليهود فى فلسطين وليس الانتداب البريطاني، والتوراة هى ميثاق دولتنا.

● الصهيونية ليست حركة استعمارية:

يناقش المؤلف فى هذا الفصل الخرافة الرابعة، وهى ادعاء الحركة الصهيونية بأنها حركة تحرر قومى للشعب اليهودى وليست حركة استعمارية، فيدحض المؤلف هذه الخرافة ويشبهها بالمشروع الاستعمارى الذى جرى فى جنوب أفريقيا وأستراليا والولايات المتحدة ضد السكان الأصليين. وقد تكمن أهمية دحض هذه الخرافة فى الموقف من النضال الفلسطينى الإسرائيلي، فإذا كانت إسرائيل دولة ديمقراطية فإن الفصائل الفلسطينية ستكون كيانات إرهابية. أما إذا كانت إسرائيل دولة محتلة فسيكون نضال هذه الكيانات ضد مشروع استعمارى فهذا يعنى أنها حركات مقاومة للاستعمار. ويؤكد بابيه أن بحلول عام ١٩٤٥م كانت الصهيونية قد جذبت نصف مليون مستوطن إلى البلد وكان حينها يبلغ عدد سكان البلد مليونى نسمة، ورغم كل محاولاتهم، فإنهم لم يستطيعوا شراء سوى ٧٪ فقط من أرض فلسطين، وكان الحل فى الإبادة الجماعية وتهجير وطرد المواطنين الفلسطينيين من وطنهم.

● الفلسطينيون غادروا وطنهم طوعا:

تدّعى الحركة الصهيونية أن الفلسطينيين غادروا وطنهم وأرضهم طوعا، ويدحض بابيه هذه الخرافة بالقول ««إن قيادات الحركة الصهيونية ومنظريها

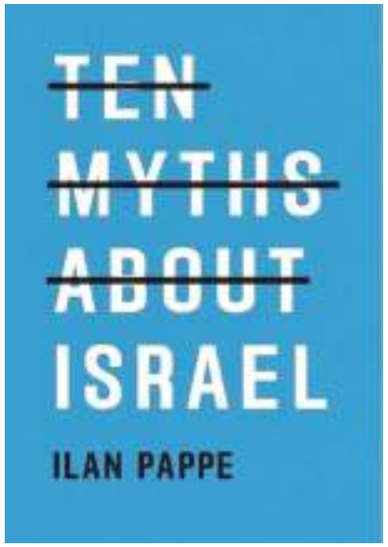

لم يستطيعوا تخيُّل تطبيق مشروعهم بنجاح إلا بالتخلص القسرى من السكان الفلسطينيين، إما عن طريق الاتفاق أو بالقوة»». وهو يستشهد بالمذابح والتهجير القسرى الذى نفذته العصابات الصهيونية بحق الفلسطينين وتدمير القرى والمدن، مشيرا إلى أن هناك بعض القرى لليوم شاهدة على هذا الدمار وتهجير أهلها. كما يشير إلى الأساليب التى استخدمتها إسرائيل فى عملية تطهير السكان، فكانت سياستهم هي: «تدمير القرى من خلال إضرام النار والتفجير، وزرع الألغام فى الأنقاض، وخاصة تلك المراكز السكانية التى يصعب السيطرة عليها على المدى البعيد، مع زيادة عدد عمليات البحث والمراقبة، وفقا للمبادئ التوجيهية التالية: تطويق القرى ومن ثم البحث داخلها. وفى حال ظهور المقاومة فيجب القضاء على تلك القوة المسلحة وطرد السكان خارج حدود الدولة، كما يناقش هذا الفصل خرافات أخرى تتعلق بأحداث العام ١٩٤٨. ونشير هنا إلى الجدل الواسع بسبب موضوع دكتوراة للباحث تادى كاتز الذى تناول فيه مجزرة قامت بها القوات الإسرائيلية سنة ١٩٤٨ فى قرية طنطورة، بناء على مقابلات مع سكان عرب من القرية ومع جنود إسرائيلين من وحدة ألسندرونى كانوا فى العملية. وإعلان بابى دعمه علنيا لتادى كاتز. الذى انتهى بطرد بابى من الجامعة.

● حرب ١٩٦٧ فرضت على إسرائيل:

يقول بابى أن الإعلام الإسرائيلى لا يزال يصّر على أن حرب ١٩٦٧ قد فرضت على إسرائيل وان إسرائيل لم يكن لديها خيار سوى خوض الحرب، لكنها تظهر عكس ما تضمر، لأن هذه الحرب كانت جزءاً من رغبة إسرائيل لاستكمال الاستيلاء على كل فلسطين. مؤكدا على أن الحرب لم تكن مفروضة بل كانت «فرصة» تم انتظارها واستغلالها حين سمحت الظروف. فقامت إسرائيل بعد الحرب مجبرة باحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة بحجة ان يكون العرب على استعداد للسلام معها، لكن كان هذا الاستيلاء هدفا صهيونيا حتى قبل العام ١٩٤٨، وكان يمثل استكمالا للعمل الذى بدأت به العصابات الصهيونية فى عام ١٩٤٨.

● إسرائيل الدولة الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط:

يرد بابيه على هذه الخرافة من خلال دراسة وضع الفلسطينيين داخل إسرائيل والأراضى المحتلة، الذين يشكلون فى المجموع نحو نصف تعداد السكان الواقعين تحت حكم إسرائيل. ويبين أنه قبل حرب ١٩٦٧ كان المواطنون الفلسطينيون، يعيشون تحت وطأة الحكم العسكرى القائم على لوائح الطوارئ البريطانية الإلزامية والتعسفية، التى تحرمهم من أى حقوق إنسانية أو مدنية أساسية. وقد كان القادة العسكريون المحليون هم بمثابة الحكام المطلقين لحياة هؤلاء المواطنين الفلسطينيين، إذ يمكنهم سن قوانين خاصة بهم، وتدمير منازلهم وسبل عيشهم، وإرسالهم إلى المعتقلات متى شاؤوا. إسرائيل منذ البداية تُخضع الفلسطينيين للحكم العسكري، على أساس لوائح قوانين الطوارئ الصارخة، التى تحرمهم من أى حقوق إنسانية أو مدنية أساسية مستذكرا المجازر التى نفذتها «إسرائيل» بحق الفلسطينيين كمجزرة كفر قاسم وغيرها الكثير.

● خرافات أوسلو:

فى الفصل الثامن يقييم بابى اتفاقيات أوسلو، بعد ربع قرن من توقيعها، وهو يتساءل «هل كان اتفاق سلام فشل أم مجرد حيلة إسرائيلية جديدة لتعميق الاحتلال ويعتقد أن هدف إسرائيل من أوسلو كان منع تشكيل أى مؤتمر دولى من أجل السلام، وأنه كان مجرد حيلة إسرائيلية جديدة لتعميق الاحتلال ويفند خرافة ثانية، هى إشعال الانتفاضة الثانية كعملية إرهابية ضد إسرائيل، يقول بابيه: إن الجيش الإسرائيلى كان يحتاج إلى تقديم استعراض ناجح. وذلك لأن الجيش الإسرائيلى كان محبطا بعد هزيمته المذلة على أيدى حزب الله فى لبنان فى صيف العام ٢٠٠٠. وكان هناك خوف من أن هذه الهزيمة جعلت الجيش يبدو ضعيفا، لذا كانت ثمة حاجة لاستعراض جيش «القوة التى لا تقهر» لتأكيد هيمنته داخل الأراضى المحتلة. وتم تحقيق هذا الأمر من خلال عملية الدرع الواقى العسكرية البربرية فى العام ٢٠٠٢ وبناء جدار الفصل العنصري، ونجحوا فى قمع الانتفاضة مؤقتا.

● مأساة غزة سببها حركة حماس:

يتحدث الفصل التاسع، وهو الأطول بين الفصول، عن الدعاية الإسرائيلية، التى تُروِّج ثلاث أساطير تضلل الرأى العام بشأن أسباب مأساة غزة. وهذه الأساطير الثلاث هى إن «حماس منظمة إرهابية»، و«فك الارتباط الإسرائيلى مع غزة كان عملا للسلام»، و«الحرب على غزة هى دفاع عن النفس». فتحمل إسرائيل مأساة غزة لحركة حماس التى تصفها حركة إرهابية تريد القضاء عليها. ويتبنى بابيه وجهة نظر مغايرة، طارحاً تفسيراً اخر لما حدث فى غزة منذ منعطف القرن القادم. ويؤكد أن الانسحاب الإسرائيلى كان بهدف تقوية القبضة الأمنية على الضفة الغربية وتحويل غزة لسجن كبير ولم تسحب إسرائيل جيشها ومخابراتها عن الحدود، فى حين تبين إسرائيل أن الانسحاب كان بادرة صلح ولكن واجهه الفلسطينيون بالعنف. كما اعتبر بابى الأعمال التى قامت بها إسرائيل منذ ٢٠٠٦ ضد قطاع غزة بأنها إبادة جماعية تصاعدية.

● حلّ الدولتين هو السبيل الوحيد للسلام:

يتناول بابيه فى الفصل الأخير خرافة ان حل الدولتين هو الطريق الوحيد للمضى إلى الأمام، الحل الذى يجرى الترويج له من آلة الدعاية الإسرائيلية ومؤيديها فى الغرب. ويراه المؤلف حلًا خرافيًا وهو عبارة عن «دمية يتم التلاعب بها حسب المصالح الإسرائيلية والغربية»، ويشبهه بجثة تقع فى المشرحة، وبين الحين والآخر يتم إخراجها وتزيينها وتقديمها كأنها شخص حي، ثم عندما يكتشف الجميع زيف ذلك يعاد إدخالها إلى المشرحة لتعاد الكرة. فيقول المؤلف «يجب أن تدفن هذه الجثة مع باقى قاموس الوهم والخداع، وأن إسرائيل قتلت حل الدولتين من خلال توسعة الاستيطان، وهم فقط يهدفون إلى قيادة دولة دون سيادة فعلية.

يقدم هذا الكتاب لعامة الناس تحليلاً بسيطًا لموضوع يبدو الأمر فيه معقدًا للغاية، ولكن يمكن شرحه بسهولة من خلال المنظور العالمى للعدالة وحقوق الإنسان.

يقدم الكتاب دعوة لعلماء المستقبل لترك أبراجهم العاجية وإعادة التواصل مع الناس فى المجتمعات التى يجرون أبحاثهم نيابة عنها – سواء كانوا يكتبون عن ظاهرة الاحتباس الحراري، أو الفقر، أو فلسطين. ويأمل إيلان بابيه أن يوضح هذا الكتاب بعضًا من الأمور العميقة وسوء الفهم فى قلب المشكلة الإسرائيلية الفلسطينية فى الماضى والحاضر، والمستقبل ويقول إنهما طالما دامت هذه التشوهات والافتراضات الموروثة لن يتم التشكيك فى أنهم سيستمرون فى توفير درع مناعة للنظام اللا إنسانى الحالى فى أرض فلسطين. من خلال فحص هذه الافتراضات فى ضوء أحدث الأبحاث، يمكننا أن نرى إلى أى مدى هم بعيدون عن ذلك. كما أن دراسة الحقائق التاريخية يمكننا من وضع السجل التاريخى فى نصابه الصحيح. مما يؤثر على فرص السلام والمصالحة فى فلسطين إسرائيل. ويرى فى النهاية أن المكافأة الحقيقية من هذا الكتاب هو أن يدفع دعاة الصهيونية أو المؤيدين المخلصين لإسرائيل إلى استعداد للتعامل مع الحجج الواردة فيه.

●●●

إيلان بابى نموذج لكتاب حقيقيين من غير العرب يجعلون العلم والحقائق التاريخية وحدها الدافع وراء مبادئهم، لديهم من الشجاعة ما يجعلهم يقفون أمام الآلة الجهنمية للصهيونية العالمية وأذنابها، وعلينا أن نتصل بهم وننشر جهودهم ونؤازرهم ليستمروا فى كفاحهم ضد الظلم الواقع على فلسطين وغيرها من الشعوب المحتلة.

بقلم: هالة البدري